الباب الأول

المقدمة

الباب الأول

المقدمة

العراق الحديث يحتل مكانا مرموقا في عالم الشعر العربي الحديث. فقد كثر هناك بعد النهضة عدد النابهين العباقرة من الشعراء والكتاب ويتصدر طليعة هؤلاء معروف الرصافي الذي برز شاعرا خلال سيطرة العثمانيين على العراق. الرصافي أكثر معاصريه اتصالا بالمجتمع وأكثرهم إحساسا بما تعاني الطبقات المستضعفة المتخلفة من آلام وأحزان، وما تحمل من آمال وأماني، وعند الدولة العثمانية مبغوضة إلى العرب لبعض عللها ومعايبها، ودفع لذلك شعراء هذه الحقبة أمثال الرصافي والزهاوي والجواهري إلى تمثيل مرحلة أدبية واحدة تكاد تكون متقاربة في الأبعاد الزمنية، والعمل على تسخير أشعارهم لخدمة قضيتين أساسيتين هما: القضية السياسية والقضية الإجتماعية وهما قضيتان حديثتان امتدت تأثيراتهما إلى الشعر العربي لهذه الوقت.

وهذا البحث يحاول الكشف عن مثل هذه القضايا التي تعرض لها الرصافي من خلال كتاباته النثرية والشعرية، ولم أجد أحدا درسها بالاستقصاء الذي حاولته في هذه الأطروحة، إلا أنني لا أدعي الكمال فقد يكون هناك شباب يشمرون عن ساق الجد لجعل هذا العمل موسوعيا يستفيد به الأجيال إلى قرون.

وقد تم تقسيم هذه الأطروحة إلى مقدمة، وأبواب، وخاتمة.

والأبواب هي كما يلي:

الباب الأول: تاريخ العراق السياسي والاجتماعي والاقتصادي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

هذا الباب يشتمل على ثلاثة فصول وهي:

1. العراق السياسي من فجره إلى بداية الحكم العثماني.
2. العراق السياسي تحت الحكم العثماني وبعده.
3. الأوضاع الإجتماعية والاقتصادية للعراق في مطلع القرن الماضي.

وقد ذكرت في هذا الباب أن تاريخ العراق أطول وأقدم تواريخ العالم، فيعود – كما يرى المؤرخون – إلى 100 ألف سنة قبل اليوم، وقد بدأت معالم الحضارة العراقية الرائعة قبل 5000 سنة، وحكم العراق السومريون والأكديون والبابليون والكيشيون الأكراد ثم الأشوريون والكلدانيون، وتلاهم الآراميون الذين جاءوا معهم بحضارة مختلفة عما قبلها. وفي عام 637م (14هـ) تبدأ مرحلة الحضارة الإسلامية بعد الفتح الإسلامي للعراق، وأقام العباسيون هنا دولة جديدة تنتهي بغارة المغول على العراق، وجاء الحكم العثماني عام 1534 واستمر إلى عام 1918 إلى أن سقط بيد الإحتلال البريطاني الذي استمر وجوده في العراق حتى بعد قيام الحكم العربي، وأعلن استقلاله عام 1932.

وكذلك ذكرت في هذا الباب أوضاع العراق السياسية والإجتماعية أيضا, وتحدثت عن تأثر الحوادث السياسية والإجتماعية على الشعر العراقي. لم يحصل الوطنية قبول بين أظهر الناس إلا بعد أن سيطر العثمانيون على العراق. نشبت الحرب عالمية الأولى التي أثرت في وجهات الناس, فجعلوا يطالبون بالاستقلال وهناك ذكرت الانتداب والحكم بعد الاستقلال، وماذا شعر الناس بعد أن تحرروا من الاستعمار البريطاني. والحق أن أهل العراق كانوا يظنون أن الحكم الأجنبي سبة لهم وعبأ عليهم لا يكاد يطيقونه. وهذه التطورات التي حدثت سياسيا كان لها أثر ملحوظ في الشعر العراقي الحديث.

والباب الثالث يتناول معاصري الرصافي، ألا وهما الشاعران العظيمان العراقيان محمد مهدي الجواهري وجميل صدقي الزهاوي، وخصصت لكل منها فصلاً، وذلك لأن كليها يحتل مكانة بارزة في الأوساط الشعرية في العالم العربي بأسره، يعرف الزهادي نصيرا للمرأة، ومثل اسمه رغبات أهل العراق السياسية والإجتماعية خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين. وكان من معاصري الرصافي الذين احتلوا مكانة خلال الحكم العثماني، وزار تركيا غير مرة، مدرسا حينا، ومحاضرا حينا آخر، وله بالرصافي شبه من وجوه، أحدها أن كليهما نصير للمرأة

والوطنية العربية، ومتمرد على العادات والتقاليد وإنه انتقد كالرصافي العديد من الجوانب الإجتماعية.

وأما الجواهري فقد عرف لشعره السياسي على الأعم، هذا وله إسهامات في التراث العربي من أوجه.

وما يدل على مدى صلته بالرصافي أنه قال بمناسبة ذكرى وفاة الرصافي: "نحن – أنا والرصافي – وجهان من عملة واحدة".

عين الجواهري سفير العراق إلى براح (Prague) في أوائل عام 1960م، وشغل مناصب مهمة أخرى في مجال التعليم والصحافة. وحصلت له شهرة كبيرة لشعره الثوري الوطني وذلك بعد الحرب العالمية الثانية. خلافا يغره من معاصريه اتخذ الجواهري أسلوبا جزلا يغلب عليه طابع الشعر القديم إلا أن الشعب العربي كان مشغوفا بشعره وعاطفته، وذلك هو السر وراء قبوله في الأوساط الشعرية.

وكل من البابين الثالث والرابع يتحدث عن الرصافي، شاملا للعديد من جوانب حياته وشعره.

أما الباب الثالث ففيه فصول آتية:

الرصافي حياته ودراسته:

الرصافي في إستانبول

الرصافي في بغداد

الرصافي شاعرا للإنسانية

الوعي السياسي في شعر الرصافي

معروف عبد الغني الرصافي – نسبة إلى مسقط رأسه الرصافة – ولد عام 1875، في أسرة فقيرة، ودرس في أحد كتاتيب المنطقة، وتشرف بالتتلمذ على الشيخ المحقق العلام محمود شكري الألوسي، وبدأ عمله التدريسي بعد الدراسة. وكان شعره سلاحا حارب به العدوين اللدودين الفقر والاستعمار البريطاني.

فصل "الرصافي شاعرا اللإنسانية" يبحث في الخصال التي تعرض لها ونادى بها، وكانت هي غايته المطلوبة فمنها تخليص المجتمع من الفقر والبؤس، وذلك لأنه ذاقه نفسه، فكان يشعر بمرارته، ولذا كلما كان يرى فقيرا أو أرملة أويتيما أو منكوبا ملهوفا رق له قلبه.

وعندما ندرس شعره من هذا الجانب نرى أنه يحذر من عواقب الجهل الوخيمة ويدعو إلى العلم. ولا أغالي إذا قلت إنه شاعر الشعب الإنساني بحق، فهو الذي يمثل همومهم، ويعلم الأحداث التي تتصل بالطبقات المستضعفة المنكوبة من الشعب. تمثيل البؤس والفقر، والدعوة إلى العلم، وتصوير الوطنية بوجهيها الإيجابي والسلبي، من ميزات شعره الإنساني.

الميزات التي استلزم الخبراء توافرها في رجل ليكون سياسيا ناجحا توجد في شخصية الرصافي تماما، فهو سياسي من هذا الوجه، ولكن له مطالب من خلال وعيه السياسي هذا، فهو يريد إصلاح المجتمع العربي، وتخليصه من الإحتلال البريطاني، وهناك عدد ملحوظ من قصائد ديوانه يتناول هذا الموضوع بدقة ومتانة شعريتين.

الباب الرابع: القضايا الإجتماعية والسياسية في شعر الرصافي، وهو يحتوي على الفصول الآتية:

الفصل الأول: قضايا المرأة عند الرصافي.

الفصل الثاني: الإصلاح عند الرصافي.

الفصل الثالث: الرصافي ضد الاستعمار.

الفصل الرابع: أثر الرصافي على المجتمع العراقي.

والباب الأخير يتناول موضوعات إصلاحه، ودفاعه عن المرأة, ومحاربته للاستعمار الريطاني والحكم العثماني، ترددت دعوة الإصلاح في شعر الرصافي، فهو يرفع صوته عاليا، وتحذو المنظمات والجماعات حذوه، والعامة توافقه، ولكنه لم يقصر الإصلاح على المجالين السياسي والاجتماعي. ووراء هذا الإصلاح بذل الرصافي

جزء كبيرا من حياته، ولهذا الإصلاح نواح عنده, ضربية الأمر إحدى نواحيه، وتفاعل الرصافي مع أحداث عصره ودعا إلى الإصلاح السياسي أيضا.

الرصافي – كالزهاوي – نصير المرأة ولاسيما المرأة العربية، ويتعرض في هذا الصدد لبعض الموضوعات التي ربما تفضي إلى النزاع، فهو معارض للحجاب، وينادي بتحرير المرأة من هذا "التقاليد"، كما أنه يثور في العديد من فروعات الزواج والطلاق. وعلى الرغم من كل ذلك، لابد من الاعتراف بأن الرصافي له إسهامات مشكورة في تراث الأدب العربي، كما أنه لعب دورا رئيسيا في تطوير المجتمع العراقي, فليس الرصافي بشاعر فحسب, وإنما هو رجل ثوري، رجل يستحق أن يدعي "أبا الأيتام والمساكين"، رجل لا تزال تتردد أصداؤه في العالم العربي الحديث.

ويلي هذا الباب الخاتمة أو نتيجة البحث – بكلمة أخرى وأحرى – التي حاولت فيها إيراد عصارة البحث دون إطناب ممل ولا إيجاز مقل.

الجوانب التي درستها في هذا البحث ولو تجد بعضها مبثوثة منثورة خلال الكتب الكبيرة والصغيرة التي أعدت حول حياته وأعماله أو معاصريه إلا أن هناك جوانب تجدها لم يتعرض لها أحد، أو تعرض ولكن ليس فيه سرد وتنسيق، فحاولت أن أقوم بإيرادها بطريقة منسقة، مبسوطة، وليس مني دعوى للإتقان والأحسان، وما واجهني من مصاعب قلة المواد حول موضوع له صلة بالعراق العربي، وأنا بعيد منه بعشرات آلاف كلو متر, قل في الهند، إلا أن كل ما وجدته استفدت منه، مصادر أولية كانت أو ثانوية.